تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الاخرة وأنه يبعث من كل أمة شهيدا وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن ا تعالى : { ثم لا يؤذن للذين كفروا } أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : { هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون } فلهذا قال : { ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا } أي الذين أشركوا { العذاب فلا يخفف عنهم } أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة { ولا هم ينظرون } أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع ا إلها آخر وبكذا وبكذا وتذكر أصنافا من الناس كما جاء في الحديث ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال ا تعالى : { إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا * وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا } وقال تعالى : { ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا } وقال تعالى : { لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون } .

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال : { وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم } أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا { قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون } أي قالت لهم الالهه : كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى : { ومن أضل ممن يدعو من دون ا من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين } وقال تعالى : { واتخذوا من دون ا آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا } وقال الخليل E { ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض } الاية وقال تعالى : { وقيل ادعوا شركاءكم } الاية والايات في هذا كثيرة .

وقوله : { وألقوا إلى ا يومئذ السلم } قال قتادة وعكرمة : ذلوا واستسلموا يومئذ أي استسلموا جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع وكقوله تعالى : { أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا } أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقال : { ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا } الاية وقال : { وعنت الوجوه للحي القيوم } أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت وقوله { وألقوا إلى ا يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون } أي ذهب

واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير .

ثم قال تعالى : { الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا } الاية أي عذابا على كفرهم وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى : { وهم ينهون عنه وينأون عنه } أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضا { وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون } وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم كما قال تعالى : { قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون } وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سريج بن يونس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله في قول الله : { زدناهم عذابا فوق العذاب } قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال وحدثنا شريح بن يونس حدثنا إبراهيم بن سليمان حدثنا الأعمش عن الحسن عن ابن عباس في الاية أنه قال : { زدناهم عذابا فوق العذاب } قال : هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وببعضها في النهار